كتاب جماعي محكَم

الطّعامُ أُفقًا للقراءَة

أعمالٌ مهداةٌ إلى البلاغي سعيد العوادي

تنسيق

مصطفى رجوان

عادل المجداوي

الطّعامُ أُفقًا للقراءَة

جرت العادة أن يُنظر إلى الطعام نظرة بيولوجيّة فقط، أي على أنه حاجة ضروريّة تدخل في متطلبات إدامة الوجود الإنسانيّ. والحق أن الطعام يتجاوز هذا البعد الحيويّ، ليصبح واقعة خِطابيّة قابلة للقراءة والتأويل: فالتفضيلات الغذائيّة التي يُظهرها الأفراد مع بعضهم البعض لا تحصر الطعام في حدود ملء البطن ومجابهة الجوع، وإنما تجعل منه شكلا من أشكال التعبير الهويّاتيّ، وأحيانا شكلا من أشكال المقاومة أو الانتماء لفئة اجتماعيّة معيّنة.

ولربما نلمس في هذا السياق نوعا من التجاوب الصوتيّ والتقاطع الدلاليّ بين "الطبق" بوصفه أداة مطبخيّة، و"الطبقة" بوصفها تمييزا اجتماعيّا. وعلى هذا الأساس، أُثِر عن خبير التذوّق الفرنسيّ بريّا سَفران: "قل لي ماذا تأكل أقلْ لك من أنت". وقبله قال كسرى لهَوْذَة بن عليّ شاعر بني حنيفة وخطيبها، لما وقف على ذكائه ورجاحة ذهنه: "ما غذاؤك في بلدك؟ قال: الخبز، فقال كسرى: هذا عقل الخبز لا عقلُ اللبن والتمر". حيث ميّز كسرى بين "عقل الخبز" الحضريّ و"عقل اللبن والتمر" البدويّ في تمثّله للعرب، مُعليا من العقل الأول بوصفه عقلا "ثقافيّا" بالمعنى الأنثربولوجيّ، على اعتبار الخبز صناعةً تُحوّل الحبوب إلى منتوج آخر، ومهمّشا للعقل الثاني، بوصفه عقلا "طبيعيّا" ساذجا تبقى فيه الأشياء (اللبن والتمر) على جِبِلّتها الأولى.

وكما أن الطعام جزء من الممارسات اليوميّة، فهو عنصر تُبنى به الخطابات المتنوعة: الشعريّة والروائيّة والسينمائيّة والسياسيّة والإشهاريّة... مما يجعل منه عنصرا عابرا للمجالات الحياتيّة؛ وهو ما يقتضي من الباحثين، على اختلاف تخصصاتهم، مدّ الأيادي من أجل التعاون في فهم رمزيّاته وتجسيراته. وأعتقد أن هذا الكتاب الجماعيّ "الطعام أفقا للقراءة" أفقٌ واعدٌ في تشريح تعقيدات الظاهرة الطعاميّة. ويحق لنا أن نفخر بهذا التعاون العلميّ المثمر الذي سيسدّ فراغا كبيرا في مكتبتنا العربيّة.

سعيد العوادي

دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع

هاتف: 00962 6 4655877 خلوي: 00962 79 5525 494

www.darkonoz.com, E-mail: dar_konoz@yahoo.com

darkonoz.almarefa darkonoz darkonoz

الطّعامُ أُفقاً للقراءَة

أعمالٌ مهداةٌ إلى البلاغيّ سعيد العوادي

دار كنوز المعرفة

تأليف

جماعة من الباحثين

تنسيق

مصطفى رجوان و عادل المجداوي

دار كنوز المعرفة
للنشر والتوزيع

الأردن ـ عمان ـ وسط البلد ـ شارع
الملك حسين ـ مقابل بنك الإسكان
+962 6 4655877
+962 79 5525494
712577 عمان
dar_konoz@yahoo.com
info@darkonoz.com
www.darkonoz.com

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

2024/2/993

عنوان الكتاب: الطّعامُ أفقاً للقراءة: أعمالٌ مهداةٌ إلى البلاغيّ سعيد العوادي.
تأليف: جماعة من الباحثين.
تنسيق: رجوان، مصطفى و المجداوي، عادل
بيانات النشر: عمّان: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، 2024.
رقم التصنيف: 414.01
الواصفات: / النقد اللغوي // الأسلوب الأدبي // الأعمال الأدبية // الطعام // الأمثال الشعبية // المجاز // البلاغة العربية // اللغة العربية /
الطبعة: الأولى.
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

9 789923 493038

الطبعة الأولى
1445هـ / 2024مـ

جميع الحقوق الملكية والفكرية محفوظة، ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنفيذ الكتاب كاملًا أو مجزّأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على كمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطيًّا.

المشاركون في الكتاب

- أحمد الوظيفي.
- حنان الراجي را.
- خالد العنكري.
- رضا الأبيض.
- رضوان كعية.
- سعيد العوادي.
- عادل الحدان.
- عادل المجداوي.
- عادل لشكر.
- عبد الرحمان إكيدر .
- عبد الرزاق المصباحي.
- عبد العزيز لحويدق.
- عبد الفتاح شهيد.
- عبد الكبير الميناوي.
- عبد الهادي الخطاري.
- فتيحة غلام.
- فؤاد دحى.
- فيصل أبو الطفيل.

دار كنوز المعرفة

- كمال ذاكير.
- محمد اشويكة.
- محمد الشّهريّ.
- محمد آيت لعميم.
- محمد جعفري.
- محمد صلاح بوشتلّة.
- مصطفى رجوان.

دار كنوز المعرفة

الفهرس

تقديـــم 9

وصفات نظرية

- المغاربة والطعام: من طقوس الأكل إلى مجازات القول
سعيد العوادي 21
- بلاغة خطاب الطبخ
عبد العزيز لحويدق 47
- تأريخ الرواية العربية من مدخل طعامي: الجذور العربية والمنابت الغربية
كمال ذاكير 67
- مَرَقُ السينمائيين: ما يُؤكل ويُشرب في السينما المغربية
محمد اشويكة 109
- عن معدة الفلاسفة: نيتشه طبيبًا للأمعاء
محمد صلاح بوشتلّة 149

تذوقات بلاغيّة ثقافية

- المقاربة البلاغية لخطاب الطّعام في السّرد
مصطفى رجوان 191
- بلاغة الخبر الطفيلي: الطّعامُ نواةً للسّرد، أخبار الخطيب البغدادي نموذجاً
محمد الشهري 227
- طعام أهل الجنة بين الاستمداد والاختلاف
عبد الهادي الخطاري 259
- النظام الدلالي في لغة الطبخ: رواية "غريبة الحسين" لأحمد التوفيق أنموذجا
رضوان كعية 281

قراءات في الطّعام والكلام

- التواصل بالطعام: مدخل بلاغيّ
عادل المجداوي 301

دار كنوز المعرفة

- أثرُ الطّعام في الكلام
عبد الكبير الميناوي..... 341
- محاورة موضوعة الكرم العربي
أحمد الوظيفي 367
- الطعام والكلام: تشاكلات بنيات الخطاب وأنساق الثقافة
عبد الرزاق المصباحي..... 387
- الطعام والنار: الجماليات الثقافية لنار القِرى في الشعر العربي
عبد الفتاح شهيد 403
- البُنى العميقة في تحليل الخطاب الأدبي التراثي: خطاب الطعام وأذواقه منطلقا
خالد العنِكري..... 419

طعام الآخرين

- مُجْمَل تاريخ التغذية: ما المعاني التي يُحيلُ عليها لفْظُ "الطّعام"؟
ترجمة: فيصل أبو الطُّفَيل 459
- الطعام والأدب: لمحة عامة
ترجمة: حنان الراجي را و فتيحة غلام..... 469
- الطّبخ في الكتب: الطهي وكتبُ الطبخ في السّرد الشعبي
ترجمة: رضا الأبيض 507
- البورتريه الأدبي للأكول في القرن 19
ترجمة: محمد آيت لعميم 529
- الطعام والتواصل
ترجمة: محمد جعفري 537
- بلاغة قائمة التذوق الراقي
ترجمة: فؤاد دحّى..... 571
- الاستعارة والكناية في مسكوكات الطعام
ترجمة: عادل الحدّان 607
- الطعام: قضية أخلاقية
ترجمة: عبد الرحمان إكيدر 625
- الخطاب المتعلق بالطعام: ردم هوة السلطة ضمن عالم عولمي
ترجمة: عادل لشكر 637
- سوسيولوجيا التغذية
ترجمة: فيصل أبو الطُّفَيل 659

الطعام والنار:
الجماليات الثقافية لنار القِرى
في الشعر العربي[1]

عبد الفتاح شهيد*

حكاية كتاب "الطعام والكلام" للأستاذ سعيد العوادي حكاية جميلة، تنبني على أربعة أطباق تنبعث منها روائح الطعام ونشاوى الكلام وينبجس من خلالها شغف الكتابة بعد هضم الثقافة العربية والإحاطة بمضايقها؛ بدءا بالقرآن الكريم، مرورا بالشعر والنثر ووصولا إلى "أنوية" الثقافة العربية الكبرى عبر تاريخها الطويل.. وقد آثرت أن أروي طرفا من هذه الحكاية وقسطا من جمالها المنبعث من بين جلال أشعارها. فأكبر احتفاء بأي بحث هو تفتيق إشكالاته وتدبيج أسئلة تنبعث من بين ثناياه.. وقد اخترت إشكالات الشعر والشعرية، عبر آليات تحليلية استند إليها المؤلف منذ العنوان فيما يعبر عنه بالحفريات الثقافية. وركزت في هذه المقالة على موضوعة خاصة هي "نار القرى"؛ تلك النار التي تُنْضج الطعام، كما تُسلس عنان الكلام، وفيها مآرب أخرى للضيف والمضيف؛ والحفر في أبعادها يفجئنا بالكثير من الأبعاد الرمزية والثقافية التي تفتح أمام الباحثين آفاقا ثرية للبحث في الثقافة والأدب، وفي الشعر والحياة.

---

(1) من خلال "الطعام والكلام" للدكتور سعيد العوادي.

(*) أستاذ النقد الأدبي ونظريات الخطاب، جامعة السلطان مولاي سليمان، خريبكة، المغرب.

فالطعام موضوع شعري أثير، وقد كان العرب في ديوانهم "أوصف الناس للطعام، وألطفهم في ذكره"[1]، وهو كذلك ممارسة ثقافية متجذرة؛ فهو "بناء ثقافي"[2] منغرس في الممارسة الثقافية اليومية للإنسان. فكيف يصبح الطعام غرضا شعريا؟ وكيف ينفلت من جبروت المؤسسة النقدية وخلفها المؤسسة السياسية؛ التي تجعل من "الطعام" و"الأكل" و"الشرب" معانيَ جزئية لا ترقى إلى أن تصبح غرضا؟ وشعرنة القرى، ومن خلاله نار القرى وناقة القرى وباقي المكونات الأخرى، فعل نقدي غير متيسر، وسيثير به الكاتب إشكالات مهمة في شعرية الأغراض وخلخلة سلطة المدح والممدوح المتمكن من مفاصل القصيدة ومن رقاب الناس. وسيثير الكتاب إشكالات مهمة، ونثيرها معه، حول "الطعام" باعتباره موضوعا شعريا وبناء ثقافيا، مركزين بحثنا في هذه المرحلة على "نار القرى"؛ فكيف تكون "نار القرى" موضوعا شعريا دون أن تفقد أبعادها الثقافية؟! وكيف تكون موضوعا ثقافيا دون أن تفقد خصوصياتها الشعرية والجمالية؟! فعلى ضفاف هذه الأسئلة تتشكل الجماليات الثقافية للنار والقرى في الشعر كما في الثقافة؛ بين الأسطرة والشعرنة، وبين الماء والنار، وبين المشاركة والصراع، وبين الفناء والخلود... وغيرها من الثنائيات المثيرة التي تنضج في الكتاب على نار هادئة، نقتبس منها هذا القبس في هذه المقالة...

---

(1) ابن قتيبة الدينوري، **فضل العرب والتنبيه على علومها**، تح. وليد محمود خالص، المجمع الثقافي، الإمارات، ط1، 1998، ص 77.

(2) ماثيو أنجيلكه، **كيف تفكر كأنثروبولوجي**، ت. عومرية سلطان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، بيروت، 2020، ص 33.

1. الشعر والثقافة

إذا كان الشعر من أكثر مظاهر التعبير الإنساني ثراء، فإنه من أكثر مظاهر الثقافة العربية شفافية وعمقا، وأعظمها دلالة ونضوحا بالرموز والمعاني والقيم. لاكتنازه عناصر الفن والجمال، وتحولات التاريخ والثقافة والمجتمع، وتجليات الهيمنة ونزوعات المقاومة. والتحليل الثقافي، الذي نقترحه، إجراءٌ تحليلي نقدي يستطيع استيعاب الآفاق المختلفة التي يرتادها الشعر العربي؛ المتماثلة والمتنافرة، الفردية والجماعية، المكثفة والممتدة. كما يروم التنبيه إلى هذه التجربة الثقافية العظيمة والمغامرة الإنسانية الجديرة بالاستكشاف، والتي ارتاد غمارها الشعراء بكل شغف والتزام، وتعهّدها النقاد بالرعاية والتوجيه والنقد بكل عمق واطلاع.

إن منابع الشعر هي ذاتها، وعلاقات الشعراء المطمئنة أو القلقة بالواقع تقتفي الآثار نفسها، ونزوعاتهم للتغيير والتأثير تستدعي اللغة دائما وسيلة للتعبير، وآلية لممارسة قوة مُهيمنة، أو أداة لبلورة موقف مقاوم. ولذلك فإن الرهان الأساس هو جعل الشعر العربي قديمه وحديثه يرتاد آفاق الكونية، ودفع النقد العربي إلى الانفتاح على هذه التجارب النقدية البينية التي أضحى لها الشفوف اليوم في المجتمع النقدي العالمي اليوم. من خلال تقديم نماذج متميزة من الشعراء والنقاد العرب إلى الثقافة العالمية بأبعادهم المتعددة، وقدراتهم المتفردة في فهم الإنسان والعالم، وهو ما يستطيع التحليل المستند إلى الثقافة أن ينهض به بكفاءة نزعم أنها كبيرة وعالية.

ولا يمكن ارتياد هذا الأفق في التحليل إلا بتسليط الضوء على قضايا وظواهر تغتني بجماليات الشعر وبرمزيات الثقافة، مثل: الطعام، والماء،

والنار.. وغيرها من الظواهر التي تنتظم الأبنية الثقافية وتؤسس لفاعلية تحليلية للشعر تخترق حقولا معرفية مختلفة لتعيد بناء "قصة مقبولة" وتسائل تلك البَدَهيات والأحكام المتوارثة، التي جرى تعهدها بعناية كبيرة، حول "شعر وشعراء" كانوا أعمق بكثير مما يُروّج حواليهم. والاستناد إلى رمزيات الثقافة سيؤدي إلى اكتشاف تلك الثنائيات المتوترة والمناطق الرمادية والرموز الكبرى التي كان يحيا بها الإنسان العربي وتحيا شعريا في أوصال القصيدة، وتبلّغ رسالة الشعر الجميلة عبرها إلى كل الأجيال وسائر الثقافات؛ للانتقال من قضية الشعر إلى شعرنة القضية.

2. القرى وناره

وفي التأسيس المصطلحي فإن "القَرْيَ" "جمع الماء في الحوض"، والقَرْوُ القَدَحُ، والمقراة: القَصْعَةُ، وَقَرَيْتُ الضّيْفَ: أحسنت إليه[1]... فلأَمْرٍ ما كانت الأصول الأولى لفعل القِرى العربي مائية خالصة تُصَبّ في قَدَح قبل أن تصير أكلية تُفرغ في قصعة. وربما أن الحاجة للماء في الصحراء تفوق أهمية الأكل؛ ثم اتسع "القرى" ليصير إحسانا "بالطعام" ثم "بالكلام"؛ وهذا جزء من سحر عنوان هذا الكتاب...

والقرى عنصر أصيل من عناصر الثقافة العربية والإسلامية؛ ففضلا عن تغنّي الشاعر الجاهلي به في أشعاره ويبيت ليله واقفا على النار يبحث عن ضيف يقريه "وإن على النار الندى وابن ثامل" (حماس بن ثامل)؛ فإن ابن أبي الدنيا كتب كتابا سماه "قرى الضيف" وافتتحه بقوله

(1) ابن منظور، **لسان العرب**، مادة "نور".

ﷺ: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن قرى ضيفه" رواه الإمام البخاري في الأدب المفرد؛ مما يدل على أن "القرى" فعل مستمر في الحياة العربية قبل الإسلام وبعده. فإذا كان في الجاهلية من مقومات أخلاق المروءة العربية فإن له في المجتمع الإسلامي بعدا عقديا يجعله قضية إيمان أو عدمه.

والنار معروفة؛ ونار الناقة: سِمَتها، وفي **معجم مقاييس اللغة** أن "النون والواو والراء أصل صحيح يدل على إضاءة واضطراب وقلة ثبات. منه النور والنار"[1]؛ وهي دلالات تظل ملتصقة بالنار ملازمة لها. وقد اهتم العرب كثيرا بالنار وأحوالها، فذكروا أسماءها وترتيبها وعُبّادها، وفصلوا في نيران العرب وعلاقتهم بها[2].. ويبدي الجاحظ اهتماما بالنار أكثر من اهتمامه بالماء والهواء، وله في ذلك حجج دامغة. أما نار القرى، التي سينصرف إليها اهتمامه، فهي "نار توقد لاستدلال الأضياف بها على المنزل، وتسمى أيضا (نار الضيافة)... وهذه النار عندهم أجلّ سائر النيران بسبب أنها تهدي إلى بيوتهم الضيفان"[3]. وقد ظلت النار وسيطا بين الإنسان والله في طقوس التعبد، ثم أضحت وسيطا بين الإنسان والإنسان في سياقات مختلفة منها "طقس القرى" الذي نتحدث عنه، والذي يشكل بنية محورية في مقطع الكرم مدحا وفخرا.

---

(1) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مادة "نور".

(2) ينظر: شهاب الدين النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تح. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004.

(3) السيد محمود شكري الألوسي، **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**، دار الكتب العلمية، بيروت، 2019، 159/2.

وقد وقف الأستاذ سعيد العوادي عند هذه النار أثناء حديثه عن الترميز الثقافي لأصول الطعام، كما وقف عندها وهو يرصد القوى المساعدة في صراع المعيق والمساعد ضمن "بنيان القرى". ويرى أن أنواع النيران عند العرب، وفي رأيي كما عند غيرهم، حاملة دلالات سيميائية ورمزية عميقة ومتنوعة. كما شاع حضورها في التعابير المجازية أثناء الحديث عن الأحاسيس المحرقة "التي تكوي القلوب في السياقات الاجتماعية المختلفة"[1]؛ ثم يردف فيقول: "وتبقى النار في نظام الكرم ذات رمزية أكثر غورا وعمقا"[2]. فنار القرى تجعل الليل الأعمى نهارا مبصرا؛ تُختار لها أعلى الأماكن وأجود الحطب وأذكى الروائح؛ ولعل، يقول الكاتب: "عادة البخور للأضياف اليوم تعود جذورها إلى هذا التاريخ القديم"[3]. وهو ما يجعل هذه النار ذات خصوصية رمزية، تجعلها محورية في "فعل القرى"؛ لا تتم إلا على شرائطَ أبدع الشعراء في رسم ملامحها.

3. نار القرى والليل

نار القرى تضطرم خلال مشهد القرى المسرحي، الذي تتأجج خلاله نار عظيمة في ليل بهيم، وتشخصه مجموعة من الشخصيات الإنسانية والحيوانية: المضيف أو من يخدمه، الزوجة، الضيف، الكلب، الناقة..

---

(1) سعيد العوادي، **الطعام والكلام: حفريات بلاغية ثقافية في التراث العربي**، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط1، 2023، ص 131.

(2) **المرجع نفسه**، ص 176.

(3) **نفسه**.

وقد عبر الحريري عن هذا المشهد بعيون ضيف ليلي أنهكه المسير وأضناه التعب؛ بقوله: "فأقبل فتى أحسن من نار القرى في عين ابن السّرى"[1]؛ فهذه النار الليلية تتسم برونق عجيب وعظمة غير عادية يجعلانها تتلألأ في عيون ضيوف الليل المقصودين بها تلألأها في عيون من يشعلونها ويستهدفون غيرهم بها.

واشترط لها الشعراء شرائط منتزعة من ثقافة الصحراء الراسخة؛ فهي نار "حمراء ساطعة الذوائب في الدجى" (المعري)، تنبجس "في الظلماء ألوية حمرا" (ابن هرمة) "يعشو إلى ضوئها" الضالون (الحطيئة)، في ليل قَرّ "ظلماؤه جللت البقاع" (أبو زيد الأعرابي). وهي نار ليلية لا تنطفئ مستمرة "في الآصال والأسحار" (المعري)؛ نار قديمة "تُوَرَّثُ عن الأسلاف من أول الزمان" (الرضيّ/المعري). والشاعر أو الممدوح أو من يخدمه يبيت ليله يؤجّج هذه النار و"يُشَذّبُ جذوتها بكل منار" (عمارة اليمني) و"لا تزال تأتلف" "حتى الصباح" (الحمداني).

إن اضطرام هذه النار واستمرارها طيلة الليل طقس متوارث أبا عن جد، يدل على استمرار قيمة "الكرم" في متاهات فيافي الصحراء، التي لا تستمر الحياة فيها إلا بتكريس هذه القيمة الإنسانية العظيمة. وهي ممارسة ثقافية ذات أصول دينية خالصة؛ فقد أوقدت "النار بالمزدلفة حتى يراها من رفع من عرفة". ففعل التأجيج يجب أن يظل مستمرا، لأن من خصوصيات النار أنها إذا لم تضطرم يخمد أوارها: "وإذا تركت النار تعيش حياتها الطبيعية،

(1) أبو محمد الحريري البصري، **مقامات الحريري**، دار بيروت، بيروت، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة، 1978، ص 383.

هرمت وماتت كما يهرم ويموت الحيوان والنبات"[1]؛ ففعل التأجيج يجب أن يظل مستمرا، وهو ما يحرص عليه الشاعر:[2]

يـا موقـدا نـار القـرى للسـاري ومشَـيِّبَ جذوتهـا بـكل منـار

فالمستهدف بنار القرى هو الضيف السائر ليلا، فعليه أن يبحث عن النار وعلى المضيف أن يشعل جذوتها ثم يؤججها ويحافظ على استمرارها، لأن استمرار الاشتعال هو الضامن لاستمرار القرى ولاستمرار فعل الكرم في الحياة كما في القصيدة. فالمهم إشعال النار، والأهم منه المحافظة على استمرارية اشتعالها وتعهد تأججها والحفاظ على حيويتها:[3]

لَعَمري لَقَد لاحَت عُيونٌ كَثيرَةٌ إِلـى ضَـوءِ نارٍ فـي يَفـاعٍ تُحَرَّقُ
تُشَـبُّ لِمَقرورَيـنِ يَصطَلِيانِهـا وَباتَ عَلى النارِ النَدى وَالمُحَلَّقُ

فهي ليست نارا معزولة عن نار السلطان والشرف، بل هي قرينتها تأتلف معها، وتمكث بمكوثها.

والحيز الزمني لهذه النار هو من آخر النهار، الذي يطرق خلاله الأضياف عادة، إلى الأسحار حيث يشتد البرد والظلام؛ "الموقدي نار القرى الآصالِ والأسحار" في نظر أبي العلاء المعري.

---

(1) غاستون باشلار، **النار في التحليل النفسي**، ت. نهاد خياطة، دار الأندلس، بيروت، ط1، 1984، ص 43.

(2) عمارة بن علي بن زيدان، **النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية المؤلف**، اعتنى بتصحيحه: هرتويغ درنُبرغ الناشر: مطبعة مَرْسَوْ بمدينة شالَوْن - باريس، 1897، ص 271.

(3) نصر حتى حنا، **شرح ديوان الأعشى الكبير**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1992، ص 236.

فالليل بطوله هو الفضاء الزماني لهذه النار، وهو فعل متأت من رغبة متمكنة ومتأصلة في الإنسان، من أجل الامتداد بالنهار ومحاربة الخوف المنبعث من بين جوانح الظلام، من الحيوانات المفترسة والكائنات الغريبة والإنسان المجهول؛ هذا المجهول الذي يسبغ عليه المُضيف سمة الضيف الضائع في الصحراء، لعله يمتص روح الشر التي قد تكون منغرسة فيه. وكأنه يسترد "القيمة التطهيرية" للنار المنغرسة في الفكر الإنساني منذ القدم؛ فالنار هي الوحيدة حسب باشلار التي تجمع بين الجزاء والعقاب؛ "تتألف في الفردوس وتستعر في الجحيم: عذوبة وعذاب"[1].

إن الليل هو زمان الخوف والصمت، فتضفي عليه النار الأمان المفتقد وتؤمّن فيه استمرارية الكلام؛ لتستمر القصيدة وفعل الكرم لمواجهة قسوة الطبيعة ولتليين قساوة الإنسان.. فتعاضد الليل والنار هو الذي ينبجس من خلاله الوجود كما تنبجس من بين ثناياه أجمل الأشعار.

4. نار القرى والجبل

لقد تنبه الباحث العوادي إلى العلاقة الوطيدة بين نار القرى والأماكن العالية في الثقافة العربية؛ "فقد اختار الكريم لسكنه أن يكون في الأعالي واليفاع ليشخص للضيف وتقتحمه عينه، ولذلك افتخر الكرماء بهذا الامتياز وعُدَّ عندهم علامة جغرافية سيميائية تختصر فعل الجود الذي يجب أن يتساوق مع رمزية العلو والارتفاع"[2]، ويعزَّز هذا السكن بالنار

(1) غاستون باشلار، **النار في التحليل النفسي**، ص 11.
(2) سعيد العوادي، **الطعام والكلام**، ص 173.

العظيمة التي لا تنحجب في المنحدرات والفجاج؛ فلما "كاد القرى يستقل بالزمن الليلي، كان لا بد من تعضيد العلو بالنار ليتعاونا على إرشاد الضيف وهدايته إلى موضع القِرى، وقد استثمرت الخنساء هذا الجمع في رثاء أخيها صخر؛ فقالت:

أغـرّ أبلـج تأتـمّ الهـداة بـه كأنـه علـم علـى رأسـه نـار"[1]

فقد أبدع الشعراء في الإعلاء من شأن نار القرى، والتفاخر بأنها سامقة في الشرف عالية على اليفاع بارزة للضيوف من بعيد، يأتمّونها حيثما كانوا؛ فهي "على شُرف المقاري تأجّجُ"، و"على اليفاع تُرْفَعُ". وهو ما نبه إليه الجاحظ وهو يستجلي أحوال "نار القرى" في الشعر العربي؛ بأنها "كلما كان موضعها أرفع كان أفخر"[2]. فالرفعة الرمزية للممدوح في مقطع المدح وللشاعر في مقطع الفخر لا تتحقق إلا عبر الرفعة الواقعية للنار في مكان عال. في صورة رمزية يعم فيها النور على الظلام والدفء على البرودة والأمان على الخوف؛ وذلك كل ما يطلبه الإنسان الهائم في ظلام ليل الصحراء الحالك المخيف والبارد. قال الأحوص:[3]

إنـي إذا خفيَـتْ نـارٌ لمُرْمِلَـة ألفـى بأرْفَـع تـلّ رافعـا نـاري

فيكتمل العلو المتحقق بالشجاعة والكرم والنسب بعلو آخر متأت من إعلاء النار لتظهر للضيوف الآتين من بعيد، بينما نار المنافسين في الشرف

---

(1) **المرجع نفسه**.

(2) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **الحيوان**، تح. عبد السلام هارون، شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 134/5.

(3) **ديوان الأحوص الأنصاري**، منشورات عالم الكتب، شرح وتحقيق: محمد نبيل طريفي، منشورات عالم الكتب، ط1، 2001، ص 156.

مخفاةٌ في المنحدرات؛ فلا يكفي إيقاد النار وتعهدها بالرعاية لتبقى مشتعلة؛ بل لا بد من اختيار المكان المناسب لإشعالها، ولا بد أن يكون هذا المكان في مرتفع عال ليراه الضيوف من بعيد ويسمعوا تَغَيُّظَ غليان القدور خلاله:[1]

وقــدورٌ علـى اليفَـاعِ ينـادي الضيْـفَ منهـا تَغيّـظ الغَليـان
نصبـت للعفـاة فـي رأس نيـقٍ شـاهق الهضب شـامخ الأركان

فغليان القدور تُسْمع له أصوات تنادي الضيوف من بعيد، ومنظر النار على الهضاب العالية تتطلع له أبصارهم، والروائح الزكية المنبعثة من المواد المشتعلة تجذب أنوفهم. فيتعاضد السمع والبصر والشم للإحاطة بالضيف من كل جوانبه؛ حتى يصبح "فعل الكرم" فعلا إنسانيا ممتدا في كل الحواس، شامخ الأركان شاهقا في الأعالي.

فشموخ الممدوح وعلو قيمته محمي بنار مستعرة ستمكث متأججة دفاعا عن شرف متمكن ومكانة راسخة، هي نار مطهِّرة لكل من في نفسه رين أو عداوة مكرمة لكل من في نفسه عطاء أو محبة؛ يعليها الممدوح/ الشاعر فتعلي من مكانته وتكرس سلطانه وعظمته؛ وهي من بركات النار التي لا تنقضي ما دامت مشتعلة مضيئة ومدفئة دالة على شيم كرم مروم وأصل راسخ ...

---

(1) الراغب الأصفهاني، **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء**، تح. عمر الطباع، شركة دار الأرقم بن الأرقم، بيروت، ط1، 1999، 756/1. وقد أورد المؤلف أبياتا كثيرة عن "غليان القدر" وما له من أصوات تدعو الأضياف لها.

5. النار والمرأة

أدرج الكاتب المرأة ضمن القوى المعيقة لفعل الكرم من منظور الشاعر؛ "تلك العاذلة اللائمة التي تقف في وجه كرم فحولي لا يبقي ولا يذر"، تُخاطَبُ بعبارة "ذريني" وتواجه مقولات الإسراف، من قبيل "الشرف في السرف"، و"عليَّ الجمال وعليك الحبال"، بعقْلها السرف والحد منه بمقولات من قبيل: "حبس المال أنفع للعيال من بذل الوجه في السؤال" معارضة بشدة لصفقة "شراء الحمد بالقرى".

ويستحضر الشاعر العربي المرأة في سياق آخر وهو يبني صورة ناره العظيمة البارزة للضيوف من بعيد، ولكي يقوي أثر ناره ويعزز عظمتها وجاذبيتها يجعلها مثل امرأة سافرة متكشّفة، بينما نار غيره متقنعة متوارية؛ في إيحاءات شبقية غير بعيدة عن الارتباط المركوز في الثقافات الإنسانية بين المرأة المثيرة والنار المدْفئة؛ ومما ينسب لأبي زيد الأعرابي:[1]

لـه نـار تشـبّ علـى يفـاع إذا النيـران ألبسـت القناعـا

ولحاتم الطائي: "وليس على ناري حجاب يكنها" فإذا كان الاحتشام والتقنع مطلوبين في المرأة العربية في الواقع كما في القصيدة، والشنفرى يقول: "لقد أعجبتني لا سقوطا قناعها"، ويقول المهلهل: "قد كُنّ يُخبّئن الوجوه تسترا"؛ فإن هذا الاحتشام وهذا التقنع مستكرهان في نار القرى التي يجب أن تظل سافرة ظاهرة جذابة لا يخمد أوارها...

(1) ابن زاكور الفاسي، **عنوان النفاسة في شرح الحماسة**، تح. مصطفى لغفيري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2013، 409/3.

وإذا كانت الثقافة تطلب من المرأة أن تكون عاقلة رزينة؛ "إذا ذُكر النسوان عفّت وجلّت" (الشنفرى) "ولا تراها لسرّ الجار تختتل" (الأعشى)؛ ففي الآن نفسه يجعل الشاعر ناره أو نار ممدوحه حمراء أخرق نورها، يقول ابن عبد الأعلى العبدي[1]:

رفعت لـه حمراء أخـرق نورها قميص الدجى إذ طار فيه لهيب

فتَجلي النار للقاصدين وهيجانها المستمر، وتشبيهها بامرأة غير متقنعة، خرقاء ينبعث لهيبها؛ هو ما يجعل النار مقصودة مطلوبة جذابة، وهو ما يغري الضيفان بقصدها دون غيرها. وهو في الآن نفسه ما يجعل فعل الكرم مستمرا وفعل العطاء غير محدود مرتبطا في العمق بنماء وخصب إنساني يجب أن يظل مستمرا. وهو ما يبرع الشاعر في رسم معالمه وبيان أبعاده بحسية واضحة؛ درج على تجويد قصائده بإتقان رسم ملامحها.

و**في الختام** فإن "نار القرى" موضوع شعري وثقافي أثير، ذلك لأن الطعام بكل مكوناته بناء ثقافي متجذر في الثقافة، و"نار القرى" مكون أساس في ليل الشاعر البهيم كما في قصيدته المنيرة، ورمزياتها لا تنقضي؛ فكلما تأججت انبعث منظر لهيبها الساطع، وصوت غيظها ورائحة طيبها، لتدعو أي إنسان مهما كانت نواياه ومقاصده إلى تقمص دور الضيف اتقاء لهذه النار ومن عليها.

وهي نار أبدع الشعراء في رسم ملامحها وملاحمها، فهي نار مستعرة من الآصال إلى الأسحار، يتعهدها الشاعر/الممدوح بالإشعال والتأجيج

(1) أبو الحسن البصري، **الحماسة البصرية**، تح. مختار الدين أحمد، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1983، 234/2.

طول ليله. ولا بد من أن تتفيأ هذه النار مكانا عليا بعيدا عن المنحدرات والفجاج، يعضد فيها علو النار الشرف المتأتي من شموخ الأركان، وهي نار جذابة سافرة متكشفة تسترعي الأضياف وتحمل معاني الخصب والنماء، داعية كل إنسان إلى الولوج في فعل الكرم وطقوسه الإنسانية المفعمة بالصدق والوفاء.

لقد شرّح الأستاذ العوادي في كتابه "**الطعام والكلام: حفريات بلاغية ثقافية في التراث العربي**" كل هذه التفاصيل المفعمة بالرمزيات والعلامات، مما يجعل الكتاب دعوة مفتوحة إلى الباحثين لتعميق النظر في هذه الجزئيات في أبعادها الرمزية والثقافية الممتدة في أعماق التراث. والتي لا نقرأها للاستمتاع فقط، بل نقرأها ونعيد قراءتها لأننا نلفي فيها معنى لنا - نحن القابعين - في عالم الصراع والعنف واللاكرم. ونبحث خلالها عن أفق فكري - نحن المنزوين - في عوالم متشظية تسير بسرعة كبيرة نحو خواء مجهول العواقب.

المصادر والمراجع

- الأصفهاني الراغب، **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء**، تح. عمر الطباع، شركة دار الأرقم بن الأرقم، بيروت، ط1، 1999.
- الألوسي السيد محمود شكري، **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**، دار الكتب العلمية، بيروت، 2019.
- أنجيلكه ماثيو، **كيف تفكر كأنثروبولوجي**، ت. عومرية سلطان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2020.

- الأنصاري الأحوص، **الديوان**، منشورات عالم الكتب، شرح وتحقيق: محمد نبيل طريفي، منشورات عالم الكتب، ط1، 2001.
- باشلار غاستون، **النار في التحليل النفسي**، ت. نهاد خياطة، دار الأندلس، بيروت، ط1، 1984.
- البصري أبو الحسن، **الحماسة البصرية**، تح. مختار الدين أحمد، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1983.
- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، **الحيوان**، تح. عبد السلام هارون، شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية.
- الحريري البصري أبو محمد، **مقامات الحريري**، دار بيروت، بيروت، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة، 1978.
- حنا نصر حتى، **شرح ديوان الأعشى الكبير**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1992.
- ابن زيدان عمارة بن علي، **النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية المؤلف**، اعتنى بتصحيحه: هرتويغ درنُبرغ الناشر: مطبعة مَرْسَوْ بمدينة شالَوْن - باريس، 1897.
- العوادي سعيد، **الطعام والكلام: حفريات بلاغية ثقافية في التراث العربي**، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط1، 2023.
- ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، تح. عبد السلام هارون، القاهرة، ط 2، 1969.

- الفاسي ابن زاكور، **عنوان النفاسة في شرح الحماسة**، تح. مصطفى لغفيري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2013.
- ابن قتيبة الدينوري، **فضل العرب والتنبيه على علومها**، تح. وليد محمود خالص، المجمع الثقافي، الإمارات، ط1، 1998.
- ابن منظور أبو الفضل محمد، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، 1956.
- النويري شهاب الدين، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تح. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004.

دار كنوز المعرفة